القديس أبو نفر السائح

ملكة حبيب يوسف   يوسف حبيب

مقدمة

أونوفر أو أبونفر كما يسمى من السواح العظام الذين عاشوا في القرن الرابع ، شهرته ظاهرة ومعروفة ، وقداسته موضع التبجيل والإكرام . ولكي نبرز هذه السيرة في هذا الترتيب رجعنا إلى المجلدين بالفرنسية :

(1) Les Viès des Pères des Déserts d'Orient par le rév. pére Merin Michel - Ange Avignon 1761 .

(2) Les Saints d'Egypte . par le rév. père Paul Cheneau Jèrusalem

وقابلنا ما ورد فيهما بدقة لمعرفة النقاط موضع الاجماع الموثوق بها ، وبعد نقلهما إلى العربية جمعنا متفرقاتهما ونسقنا محتوياتهما وكذا رجعنا إلى أهم مخطوطة تعالج هذه السيرة وهي مخطوطة دوق بانيير باترولوجيا لاتينية جزء ٧٣ كما جاء بها الأب شينو في مؤلفه النفيس . وفيها رواية القديس بفنوتي المتوحد

شاهد عيان. وكنا قد لمحنا في سيرته أنه عاصر هذا السائح ووعدنا القراء بتفصيل هذه السيرة الشيقة.

وإليك هذه السيرة مرتبة في هذا النظام وقد ترجمت أجزاؤها بتصرف كثير مع عدم الاخلال بما أجمع عليه الاجماع؛ وهذبنا عباراتها بعد نقلها إلى العربية وتنقحناها كثيراً؛ ووضعنا العناوين المناسبة ليسهل على القارىء الاستفادة.

يروى القديس بفنوتي المتوحد في النصف الأخير من القرن الرابع هذه السيرة وقد ولد القديس أبونفر في زمن دقلديانوس، والمعتقد أيضاً أنه عاش حـــوالى ثمانين سنة وأنه تنيح في زمن الامبراطور فالنس Valens. ويرجح أن تاريخ نياحته كان في ١٦ بؤونه وهو اليوم الذى تعيد له فيه الكنيسة القبطية.

ويؤكد القديس بفنوتي أنه لا يروى سوى ما تعلمه من فم القديس نفسه.

ومما هو جدير بالذكر أن شينو ذكر في مؤلفاته أنه عثر في بعض أجزاء السيرة على أشياء تبدو غير معقولة؛ ويخشى أن يكون بعض اليونانيين المحـــدثين الذين يميلون إلى الروايات الخيالية قد أضافها من نسج خياله؛ وقال أنه إذا حذف ما كان

مصدره غير موثوق به فالباقي من وحى المؤمنين موثوق به وذكره بولتو Bulteau في تاريخ الرهبنة الذى ألفه.

وقد جاءت هذه السيرة جامعة لكل الحقائق النافعـــة والدروس المستفيضة. نسأل الله أن يعم القراء نفعها ببركات صاحبها. ولإلهنا العظمة والمجد إلى أبد الدهور كلها آمين؟

† † †

القديس آبا نفر

حيـــاته الديرية

كان آبا نفر راهباً ديرياً قبل أن يتوحّد حسبما كانت العادة فى زمانه . وقد قبـل فى الدير وهو شـاب وترهب فى دير بهرموبوليس(١) بالصعيد كان به فى ذلك الوقت حوالى مائة راهب يعيشون بقلب واحد ونفس واحدة ، يشتركون بمحبة كاملة فى المائدة ، ويقومون بشتى التدريبات الروحية ، يثابرون على العمل اليدوى ويلتزمون الصمت الكامل . وكان من قادة الفكر بعض الشيوخ القديسين يسددون خطواته الأولى فى طريق الكمال ، فيذكرونه مرات كثيرة بالمُثل العظيمة التى فى الكتب المقدسة: إيليا النبى وأتعابه فى الصحراء ، يوحنا المعمدان وحياة العزلة التى عاشها حتى ساعة ظهوره للعالم ، ورأس الكل ربنا يسوع المسيح الذى صام أربعين يوماً فى الجبل . فكان أرنوفر الشاب يستوعب هذه الدروس بفهم وسعد أن أتيح له ما يساعده على السير فى طريق الفضيلة فى الحياة التى اختارها .

وكان يسود النظام والطاعة فكل واحد يسلك فى الدير حسبما يأمر به القانون، وكانت قرارات رئيس الدير تقوم مقام القانون. وكان الرهبان فى هذا الدير يحفظون أنفسهم فى حالة تأمل دائم ويركزون أفكارهم فى وجود الله . وما كانوا يقطعون الصمت الا إذا كان يفضله الكلام . وكان الجميع يجاهدون من أجل التقدم فى التقوى، يمجدون الله ليلا ونهاراً . وهم مملوؤون بالإيمان الحى والمحبة المتوقدة والزهد فى العالم والصبر والوداعة والنسك، وبالجملة كانوا يتحلون بأبهى الفضائل بشكل عجيب فيما بينهم، وكانوا متحدين بثبات حتى ليبدو أنه ليس لهم سوى إرادة واحدة . وفى شركتهم كان ما يرضى الواحد يسر الآخرين أيضاً .

تلك كانت الدروس التى تلقاها أرنوفر فى شبابه ؛ فكانت تترك فى نفسه أثراً لايمحى وتملأ قلبه بمحبة عظيمة لله لدرجة أنه كان أحياناً يشعر بأنه يسمو فى عالم آخر .

† † †

(١) الأشمونين مركز المنيا .

هل الذين يسكنون الصحارى أفضل ؟

كان القديس أبو نفر يسأل أحياناً هذا السؤال وكان الرد كالآتي:

« نعم ، لأننا في الأديرة نعاشر بعضنا بعضاً كل يوم ، ولنا تدريبات مشتركة ، ففي ساعة الغذاء نجد الطعام معداً ؛ وإذا مرض أحد يعوده زملاء شفوقون ؛ وعند الحاجة يلتمس بعضنا العون عند البعض . أما في الصحراء ، فليس شيء من هذا . في التجربة لن يحضر إليك من يعزيك ؛ وإذا احتجت إلى الطعام أو الشراب فلن يعده لك أحد .

فضلاً عن أنه على الإخوة الذين يحيون حياة التوحد أن يعملوا كثيراً ويتألمون من أجل محبة الله ؛ أنهم يتعبون كثيراً من التدريبات الشاقة ضد الطبيعة ، ويحتملون الجوع والعطش بفرح ، ويجاهدون كثيراً ضد الجسد ويركضون في طـــريق الخلاص الضيق ، ولا يؤخرهم غضب الشياطين . ولكن السماء تكافئهم بطريقة عجيبة ...

وهكذا يتحقق ما كان يقوله أشعياء النبي : « وأما منتظرو الرب فيجددون قوة . يرفعون أجنحة كالنسور . يركضون ولا يتعبون يمشون ولا يعيون » أش ٤٠ : ٣١ .

إقامة القديس بالدير

يمكننا أن نستنتج من تاريخ القديس أنه لم يمكث بينهم سوى سنين قليلة . فبالرغم من أنه دخل الدير صغيراً ، إلا أن مدة إقامته في الصحراء لمدة سبعين سنة لا تترك فترة طويلة من الزمن بين وقت دخوله ووقت خروجه من هذا الدير .

لم يكن قراره بترك شركة أخوته الذين كانوا يحبونه وكان يحبهم بشدة ، عن رغبة جامحة أو خروجاً عن نير الطاعة الخلاصي ؛ وعرفنا أنه كان يسمعهم في أحاديثهم يمتدحـــون المتوحدين في الصحراء مثل إيليا ويوحنا المعمدان ، الذين كانوا يقاومون هجمات الشياطين بشجاعة متناهية ، ويعيشون لمحبة الله في حرمان من كل تعزية بشرية طوعاً ، ويقدمون أنفسهم بدون إنقطاع ذبيحة ليسوع المسيح بأعمال التوبة ، ليس لهم غير الله سنداً وقد وضعوا فيه كل ثقتهم .

لم يكن يستغرب هذه المعيشة المغايرة للطبيعة ، وشعر في قرارة نفسه برغبة شديدة في هذه الحياة . على أنه لم يندفع بدون روية ، فبعد تفكير عميق شرع في التنفيذ .

توحد القديس

انتهز سكون الليل لكى ينسحب من محبة إخوته العميقة : فلو علموا لكانوا يتدبرون فى أن يستبقوه بإصرار . ولم يأخذ معه سوى رغيف خبز واحد وبعض الخضروات تكاد تكفيه لمدة أربعة أيام ، واتخذ طريقه ناحية الجنوب عبر الجبال التى تفصل الواحة الكبيرة عن الصعيد الأسفل .

وفى رواية أخرى أنه ذات ليلة لم يستطع أن يقاوم ميله إلى الوحدة ، فقام وأخذ بعض الخبز وبعض الدقيق يكفيه لمدة أربعة أيام ، وتوغل فى الصحراء ، وهو يصلى إلى الله ليقوده حسب مسرته . ووسط الجبال رأى نوراً ساطعاً . فخاف وأراد أن يرجع إلى الوراء ويعود إلى ديره . ولكن ملاكاً ظهر له قائلاً : « أنا ملاكك الحارس ، لم أتركك منذ كنت فى المهد ، فلا تكن قلقاً وتقدم إلى الأمام دائماً وسوف تصل أخيراً إلى المكان الذى أعده الله لك » .

وسارا كلاهما معاً يوماً آخر فى هذه الأرجاء غير المأهولة؛ ورأى أبو نفر مغارة عميقة فتوقف بفعل المفاجأة وبسبب نور باهر مفاجىء حتى كان يفكر فى العودة إلى الدير ولكن ملاكاً

ظهر له وشجعه على استئناف السير . أنه ربما كان يسكنها قديس من المتوحدين . وسرعان ما تحقق ذلك . فقد قرع أبو نفر الباب وقال كلمة السر التى يعرفها المتوحدون : باركنى .

حينئذ تقدم رجل طويل القامة ، على وجهه سيماء النبل ، وقد اكسبته صلته بالله هيبة خاصة . فعند رؤيته ركع أبو نفر وقبل قدميه ولكن الشيخ المتوحد أقامه من يده وقال له : « يا أبا نوفر أنت أخى فى الرب . أدخل واسترح لبضعة أيام ، ثم بعد ذلك تتبع السيرة التى أوحى بها الله لك » .

وفى رواية أخرى أنهما سارا معاً لمدة أربعة أيام وأربع ليال . وأخيراً رأيا مغارة وبجانبها نخلة . فقال الشيخ : « هذا هو المسكن الذى عينه الله لك على الأرض يا بنى » .

وسكن الشيخ معه ثلاثين يوماً ، كان فى أثنائها يعلمه بأعماله وبكلماته ممارسة أعلى الفضائل ، ثم تركه ، بعد أن وعد بالزيارة مرة واحدة كل سنة . وقد أوفى وعده حتى اليوم الذى تنيح فيه أثناء زيارته للقديس .

† † †

الملاك يرشد القديس

بعد ترك القديس الدير أمضى ستين(1) عاماً فى البريـــة ثم اصطحبه الملاك فى طرفه وأعطاه نصائح ممتازة عن الحياة التى كان خليقاً أن يحياها .

واقتاده إلى مغارة أحد المتوحدين ثم أختفى . نعم اقتادت العناية الإلهية متوحداً؟ آخر إلى أعماق الصحراء ، كان يتطلع إلى معرفة ما إذا كان هو الوحيد الذى يحيا من أجل الله . فى التوحد بمفردى لا تكاد مؤونته تكفى لمدة أربعة أيام . وساوره القلق لما رآها تنفذ . لكنه لم يكن يتمادى فى القلق بل سلم نفسه للعناية الإلهية . فشعر بقوة غير اعتيادية جعلته يسير لمدة سبعة عشر يوماً دون أن يفكر فى أن يأكل شيئاً . وفجأة كان له أن يرى القديس أبو نفر ! وكان شعره طويلاً غير مرتب ، ولحيته طويلة جداً تتدلى على جسده ، يتمنطق بحزام من الأوراق العريضة .

خاف وتصـــور أنه أمام لص يبحث عنه البوليس الامبراطورى منذ زمن طويل ؛ فتسلق قمة تل قريب وهو يداوم النظر إلى الشخص العجيب حتى توقف . وعند السفح جلس الشيخ

(1) وقيل سبعون .

فى الظل وتبدو عليه دلائل التعب . وكان شيخاً مسناً يعانى آثار الحرمان من أشياء كثيرة . فبعد أن استراح قليلاً ، حانت منه إلتفاتة إلى القمة وإذ رآه صرخ بصوت عالٍ قائلاً : « انزل أيها الراهب القديس . انى أسكن هذا القفر من أجل محبة الله » .

وتقدم أرنوفر حسب عادة المتوحـــدين طالباً بركة الشيخ القديس. خرج من مغارته ولما رآه ساجداً أقامه وقبله قبلة السلام واستقبله بكل مظاهر المحبة .

† † †

حديث القديس مع الأب بفنوتى

قال أبو نفر:

« منذ ستين سنة أقيم فى هذه الصحراء وأتجول فى الجبال الموحشة وأتغذى على الحشائش البرية وثمار النخلة ، وهى علامة مكان إقامتى . ولم أر انساناً سواك طوال هذه المدة ».

فقال بفنوتى : « أيها الأب ، اخالك تألمت كثيراً فى بداية هذه الحياة المنعزلة ».

ـ « نعم يا بنى تألمت لدرجة انى يئست من الحيـاة لشدة ما قاسيت من الجوع والعطش ، وكنت أعانى كثيراً من جراء توالى حرارة النهار وبرد الليل القارس المفاجىء . ولكن الله نظر إلى ضعفى وسلامة قصدى . فإنه عندما تكل مشيئته تختبر دائماً فعل عنايته ».

كان الحماس يستولى على بفنوتى عند سماعه هذه التفاصيل العجيبة منه . ثم أخبره أيضاً أن كثيرين ممن يسكنون القفـار يتمتعون بعطايا جليلة حتى أن منهم من يُحملون إلى السماء حيث ينظرون القديسين فى مجدهم ويتهللون بفرح لا تعرفه الأرض . وحينئذ يمنح المرء خيراً كهذا ، فهو لا يفكر فيما بعد فى هذا العالم.

وكان أسلوب الشيخ المتوحد وعجائب حياته الطويلة قد جعل القديس بفنوتى ينسى كل أتعابه . وكان يشعر بالقوة جسـداً وروحاً ، وأخذ منه العجب كل مأخذ فلم يفكر فى تناول أى طعام ؛ حتى سأله أبو نفر قائلا : « يا أخى لنقم الآن ونذهب إلى مسكنى » . وكان على مسافة بضعة أميال ؛ ولكن الحديث جعلهما لا يشعران بطول الطريق . ودخلا المغارة عند غروب الشمس . وكان على الأرض الصخرية رغيف وقليل من الماء . فقال أبو نفر: « هلم يا أخى شاركنى هذا الخبز وهذا الماء ، لأنك متعب جداً من رحلتك الطويلة » . فأكلا ثم أمضيا الليل كله فى الصلاة .

† † †

الاستعداد للتوحد

كان يستعلم عن واجبات حياة التوحد ، ليتعود بمثال معلمه الجديد على ضروب هذه الحياة . وبعد أن عرف الشيخ رسوخه وأنه فى امكانه الاستغناء عن تعليماته ، قرر له الوقت الملائم الذى فيه يقف على قدميه وحده ؛ فيقتاده إلى المكان الذى أعدته العناية الإلهية لسكناه .

وقيل أنه قبل بفرح دعوة أحد القديسين(١) ، إذ كان يشتاق أن يعرف منه بعض ما يمارسه فى حياته الجديدة . وقد استفاد الراهب الشاب من هذه الصحبة المقدسة ؛ ولما حان وقت الفراق فى الصباح أعلنه الشيخ قائلا : « قم يا بنى ، فسوف أقودك » ؛ ووصل إلى صحراء موحشة تحوطها الجبال حيث أراه الشيخ مغارة قال له عنها أنها المكان الذى عينه له الله . وبقى معه أيضاً شهراً يساعده ليتقوى أكثر وأعطاه نصائح مقدسة . ثم استودعه الرب وعاد إلى مكان اقامته المعتاد .

+ + +

(١) جاء فى أحد المخطوطات أن اسم هذا القديس «هرمس» Hermès.

التـــدريب

كان الشيخ يزوره مرة واحدة فى كل سنة ولم يستمر ذلك لمدة طويلة على ما يبدو لأنه كان متقدماً جداً فى أيامه . وفى النهاية مرض أثناء زيارته له وأسلم الروح بين ذراعيه بعد حياة حافلة فى شيخوخة صالحة واستحقاقات كثيرة ، ودفن بيدى القديس أونوفر .

ولم يحرم أبو نفر التعزية التى كان يأخذها من أبيه الروحى فحسب ، بل كان أيضاً يتألم كثيراً فى صحرائه ، بالأخص قبل أن يعتاد على الجوع والعطش وتقلبات الجو ، وأيضاً من جراء التجارب المختلفة التى كانت تهاجمه .

وقد اعترف القديس بفنوتى المتوحد أنه كان أحياناً يجد نفسه منهوك القوى لدرجة أنه لا يبقى فيه سوى أنفاس تتحرك ، وكأن روحه على وشك أن تفارق جسده ؛ ولكنه كان يتعزى برجاء الخيرات الأبدية ، عالماً أن الله الصادق فى مواعيده قد أعد فى السماء ثقل مجد عظيم لمن كانوا أمناء .

كان يتغذى فترة من الوقت بالأعشاب البرية التى كانت تنمو حول مغارته ؛ وفيما بعد أضاف إلى هذا الغذاء بعض البلح وجده فى مكان قريب كان يفترش الأرض الجرداء ، تارة بداخل مغارته ،

وطوراً فى الوادى أو فى الجبل، حسب المكان الذى يفاجئه فيه الليل أثناء صلاته. كانت ثيابه بالية تماماً ولم يعد ما يستر به جسده غير الشعر الطويل المسترسل على جسده، وحزام من ورق الشجر.

وعاش على هذا الحال لمدة سبعين سنة لم ير فيها غير الشيخ القديس الذى اقتاده إلى هذه الخلوة ، وسعد القديس بفنوتى بمقابلته، ولم يكن يعلم شيئاً عن مظهره ، فاعتراه الفزع إذ تراءى نحيفاً للغاية ومغطى بالشعر ، لدرجة أنه خشى أن يكون شبحاً. فركض بكل قواه لكى يختبىء فى الجبال ، وما كان يجسر على النزول أبداً ، حتى صاح إليه أبو نفر الذى فهم خوفه . ألا يخشى شيئاً وأنه إنسان مثله .

وإذ أفاق من الخوف بهذه الكلمات، لم يشك فى أن ذلك كان بفعل العناية الإلهية ، إذ كشف الله له لأجل منفعته عن متوحد ذى فضيلة فائقة كما كان يرغب فى ذلك أثناء جولاته فى الصحارى البعيدة . فأخذ يتحدث إليه وسأله عن اسمه وعن كل تدبير حياته، متوسلا إليه ألا يخبىء عنه شيئاً.

أما القديس أونوفر فكان يتكلم بمحبة دون أن يكون فى كلامه شىء من الغرور ، فكان يرضيه ببساطة فى كل الأسئلة التى يوجهها إليه . وأعلن له بالتفصيل ما كان منه والنعم التى اختصه الله بها إلى ذلك الحين برحمته غير المتناهية .

اعتناء الله بالقديس

ويبدو من المواهب التى أخذها من الله ، أنه بقدر اشراق قداسته كان تساميه فى الحرمان من كل تعزية بشرية ، وكانت له مواهب السماء : حتى أن الله ، بعد التجارب كان يملأ قلبه عزاء ونعيماً ، وكان يتناول كل يوم أحد من خبز الحياة ، أى جسد الرب يسوع المسيح ؛ ولم يكن له اهتمام بالطعام الجسدى؛ فليس له رغبة سوى أن يرضى الله ، وليس له عمل سوى أن يسبح الله ويحبه ، فكل غايته أن يكرس نفسه لله . وما كان يتوق إلى هذه الغاية السعيدة لكبر سنه بقدر ما كان يتوق إليها بنبضات قلبه المتدفق بالحب .

✝ ✝ ✝

نياحة القديس أبونفر

أرسل الله له القديس الأنبا بفنوتى، كما أرسل القديس الأنبا أنطونيوس إلى القديس الأنبا بولا المتوحد، لكى يعرف المؤمنين بقداسة حياته. وبعد أن قضى القديس بفنوتى الليل فى الصلاة معه، رأى فى الغد تغييراً عظيماً على وجهه وشحوباً كمن يسلم الروح. فاضطرب خشية أن يفقده سريعاً؛ لكن القديس عزاه وأقر أنه فى نهاية سعيه. وأعطاه بعض التعليمات من أجل خلاص نفسه.

وفى رواية أخرى أنه عند شروق شمس الغد رفع بفنوتى عينيه نحو الشيخ المتوحد فوجد وجهه متغيراً يعلوه شحوب الموت فاعتراه خوف شديد، فقال له القديس أونوفر:

«لماذا هذا الاضطراب يا أخى؟ ان الله المحسن إلى عبيده إنما اقتادك إلى هذا المكان لكى تقوم بالواجبات الأخيرة نحو جسدى. فاليوم يغمرنى الله فعلا بإحساناته وأدخل الراحة الأبدية.

أما أنت أيها الأخ المحبوب، فستعود إلى مصر وتعرف الناس انى وجهت صلاة خاصة إلى الله فاستجابها: «فكل من كان فى تجربة والتجأ إلىّ ينقذه الله».

الحديث الأخير

قال بفنوتى: «يا أبى إذا كنت تحسبنى مستحقاً، اسمح لى أن أسكن مكان عزلتك منذ الآن».

قال: «يا بنى، انك لم تأت لكى تسكن فى هذا المكان؛ ان الله أوحى إليك بهذه الرحلة لكى تدفنى فحسب، وبعد وفاتى لك أن تعود إلى مصر. فثابر على أعمالك الصالحة حتى الموت من أجل محبة يسوع المسيح».

فسأله القديس بفنوتى قائلا: «على الأقل يا أبى، باركنى حتى يرحمنى الله أنا أيضاً».

أجابه القديس أبونفر: «يابنى ليكن لك ذلك. وليحفظك الرب من كل سهام العدو، ولتحرسك ملائكته ساعة الموت».

ولما دنت ساعة نياحته قام للصلاة بدموع كثيرة، وركع على الأرض وقال: «يا الله فى يديك استودع روحى». وعند هذه اللحظة أحاط به ضوء سماوى فأسلم روحه فى هذه الحالة التقوية.

ويؤكد القديس بفنوتى الذى روى ذلك كشاهد عيان، أن الملائكة كرمت وفاته بالترانيم. كما أنه كان متأثراً للغاية ومنذهلا

لرؤيته هذه العجائب . وهكذا رقد رقدة الطوباويين . وفي نفس اللحظة كان الملائكة يملأون الجو بتراتيل مقدسة .

وأثناء الليل ، خلع الأب بفنوتي ثوبه الكتان وقسمه إلى قسمين دفن جسد خادم الله بأحدهما ؛ واحتفظ بالقسم الآخر ليحتمي به من برد الليل . وكان بالقرب من المكان صخرة على شكل وعاء ، فوضع فيها جسد القديس ، وهو يصلي ويسكب الدموع ،وكانت عيناه مثل نبع ماء دائم ، وتملكته مشاعر الحب والاخلاص حتى أنه لم يكن يريد مطلقاً أن يفارق المكان، حتى يصير وارثاً للبركة من مغارته . لكنها لم تكن معدة له ، فلما قام ليلقي النظرة الأخيرة على المغارة التي قدسها أونفر الطوباوي بعد أن وارى جسد القديس التراب ، انهارت المغارة وكذا النخلة من تلقاء ذاتها وجفت عين الماء أيضاً ؛ كما قال القديس . بركة صلواته تكون معنا آمين ؟

† † †

المراجـــع

(1) Les Vies des Péres des Déserts d'Orient par le rév. père Marin Michel - Ange. Avignon 1761 .

(2) Les Saints d' Egypte. par le R. P. Paul Cheneau, d'Orléans Jérusalem 1923 .

(٣) مخطوطة مكتبة دوق بافيير

باترولوجيا لاتينية جزء ٧٣

(شيذو عن القديس بفنوتي)